-المحاضرتين السابعة والثامنة (تاريخ العراق القديم) المرحلة الاولى -قسم الاثار

- العصر الاشوري القديم

إتفق معظم الباحثين على أن الآشوريين هم فرع من الأقوام العاربة التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية المهد الأول لهم، بعد أن حل الجفاف في مناطق استقرارهم الأولى. و أقام الآشوريون قبل دخولهم بلاد الرافدين في أعالي نهر الفرات وعند أطراف نهر الباليخ، ثم انحدروا باتجاه بلاد الرافدين التي شكلت لهم منطقة جذب حضارية متميزة في تلك المدة. و كان السهل الرسوبي منطقة سكناهم الأولى ثم اندفعوا باتجاه المناطق الشمالية والشمالية الشرقية لبلاد الرافدين والتي أكسبوها تسميتهم فيما بعد. و مرَّ تاريخ الآشوريين منذ استقرارهم في بلاد الرافدين لأول مرة، وانتقالهم إلى شماله حوالي منتصف الآلف الثالثة قبل الميلاد وحتى سقوط المملكة الآشورية، التي حكمت أجزاء واسعة من الشرق الأدنى آنذاك، سنة 612ق.م بأربعة مراحل. تبدأ المرحلة الأولى منذ استقرارهم في أرض الرافدين ومن ثم انتقالهم إلى شماله حوالي منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، عندما كانوا على الأرجح عبارة عن قبائل رحل تمارس الرعي، وتتنقل قبائلهم بين أعالي بلاد الرافدين والشمال السوري وحتى الألف الثاني قبل الميلاد حيث كان الآشوريون خضعوا خلال هذه المدة للسيطرة الأكدية، ومن ثم لنفوذ مملكة أور الثالثة فيما بعد. أما المرحلة الثانية من التاريخ الاشوري والتي استمرت حوالي خمسة قرون شغلت المدة من بداية الألف الثاني وحتى سنة 1500ق.م، و شهدت بلاد آشور خلالها مرحلة الاستقلال السياسي وتكوين المملكة المستقلة والتي أمتد نفوذها إلى أراضي لم يكن الآشوريون وصلوها من قبل، و برز من ملوك تلك المدة الملك شمشي أدد الأول (1814-1782ق.م).

في حين عرفت المرحلة الثالثة من تاريخ الآشوريين بالعصر الآشوري الوسيط (1500-911ق.م) الذي تباينت فيه أحوال بلاد آشور السياسية بين القوة والضعف. عندما كانوا تابعين للدولة الميتانية في بدايات هذا العصر، ثم أنجزوا استقلالهم عنها فيما بعد، وحتى عندما كانت أشور تملك زمام أمرها إبان تلك المدة، كان التنقل بين القوة والضعف هو ما يميز أحوالها آنذاك. ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الرابعة والأخيرة من التاريخ السياسي للأشوريين ،والذي تعارف عليه

الباحثين بالعصر الأشوري الحديث والذي استمر حوالي ثلاثة قرون(911–612ق.م) وبلغت المملكة الأشورية خلال تلك المرحلة أوج عظمتها وقمة ازدهارها السياسي والحضاري.

- الآشوريون في الألف الثالث قبل الميلاد:

تعود بدايات تكوين الكيان الآشوري في بلاد الرافدين إلى عصر فجر السلالات، عندما بدأ الآشوريون على الأرجح يمتهنون الزراعة ويميلون إلى حياة الاستقرار بعد حقب طويلة من حياة الترحال التي ربما كانوا يتخذون من الرعي مهنة لهم. و كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في مدينة آشور، التي تعد من أولى المواقع التي استقر فيها الآشوريون، بسبب وجود معبد يعتقد انه يعود للاشوريين في تلك المدينة يعود إلى عصر فجر السلالات. كما وردت من تلك المدة بعض النصوص المسمارية التي حوت أسماء بعض الحكام الآشوريين الذين تولوا إدارة شؤون الآشوريين إبان تلك المدة. مما يعني أن الآشوريين في ذلك الوقت بدأوا يشكلون مكوناً أساسياً في بلاد الرافدين، وربما يكون شيوخ الآشوريين هم المسؤولون عن إدارة تلك الجماعات الحديثة التكوين.

و أصبحت مناطق استقرار الآشوريين في شمال بلاد الرافدين تحت السيطرة المباشرة للدولة الأكدية، التي أضحت لها السيطرة الكاملة على مقاليد الأمور في بلاد الرافدين لأكثر من قرن ونصف من الزمان (2371–2230ق.م)، و بقيت بلاد آشور تحت نفوذ المملكة الأكدية حتى آخر أيام تلك المملكة. وقد أمدتنا التنقيبات الأثرية ببعض الأدلة التي أكدت السيطرة الأكدية على بلاد آشور ومنها العثور على كتابة للملك الآشوري شمشي أدد الأول (1814–1782ق.م) والذي كتبها بمناسبة تجديده لمعبد الآلهة عشتار في نينوى. حيث تفيد هذه الكتابة بأن الملك الأكدي مانشتوسو (2306–2292ق.م) كان آخر من قام بتجديد هذا المعبد وأعاد بناءوه عندما كان جالساً على عرش المملكة الأكدية.

كما عثر في مدينة آشور التي أمست واحدة من المدن المهمة خلال العصر الأكدي على خنجر مهدى من قبل آبازوا الذي ورد اسمهُ في التسلسل الثالث عشر في ثبت الملوك الآشوريين الذين كانوا في ذلك الوقت ربما يتخذون لقب شيخ وليس ملك. و نقشت الكتابة على ذلك الخنجر بهيئة (خادم مانشتوسو) مما يؤكد تبعية الآشوريين للمملكة الاكدية. في حين تم العثور في معبد الإلهة

عشتار في مدينة نينوى على قناع من البرونز يمثل وجه لشخص رجح أكثر الباحثين عودته إلى الملك شروكين (سرجون) الاكدي 2371–2316ق.م أو حفيده الملك نرام سين (2291–2255ق.م) نظراً لنسبته إلى تلك المدة. كما أن الملك سرجون الاكدي وخلال جهوده المعروفة في توحيد بلاد الرافدين أشار إلى بعض الكيانات السياسية التي كانت قائمة آنذاك، لكنه لم يشير إلى الآشوريين أو إلى تكوينات سياسية لهم. مما يرجح الى ان الآشوريين في تلك المدة كانوا مندمجين مع السكان المحليين الذين اطلقت عليهم نصوص تلك المدة أسم السوبارتيين. وتجدر الإشارة إلى أن مدينة آشور حظيت باهتمام الملوك الاكديين نظراً لوقوعها في منطقة وسط بين بلاد الأناضول وعاصمة المملكة الأكدية، مما جعلها تمثل حلقة وصل بالنسبة للقوافل التجارية التي تمرعبرها من اكد الى بلاد الاناضول.

وبعد أن مرت بلاد الرافدين بمحنة الغزو ألكوتي الذي أسقط المملكة الأكدية، آلت مقاليد السلطة إلى السومريين من جديد متمثلة بمملكة أور الثالثة (2112–2006ق.م) التي استمر حكمها لأكثر من مائة عام. والتي عدت الوريثة الشرعية لمنجزات المملكة الأكدية وممتلكاتها، وتبعاً لذلك فقد خضعت بلاد آشور لسلطة مملكة أور الثالثة. تم العثور على كتابة في معبد الإلهة عشتار في مدينة آشور تذكر اسم الحاكم زاريقم وتذكر خبر بناءْه لهذا المعبد المكرس للإلهة عشتار، من أجل حياة سيده الملك أمار – سين (2047–2039ق.م) ملك أور حيث كان زاريقوم أحد عمال ملك أور وحاكماً لمدينة آشور. وتشير النصوص العائدة إلى تلك المدة إلى أن بلاد آشور تمتعت خلال مدة حكم مملكة أور الثالثة باستقلال شبه كامل، على العكس من باقي المدن والأقاليم التابعة والتي كانت تتبع ملك أور بشكل مباشر.

1- المملكة الآشورية القديمة:

يشير اعتلاء الملك صيلولو الذي يأتي تسلسله تحت الرقم سبعة وعشرون في ثبت الملوك الآشوريين المعروف بثبت خرسباد للملوك الآشوريين، كأول حاكم مستقل لبلاد آشور بعد سقوط سلالة أور الثالثة. عندما أعلنت بلاد آشور استقلالها بعد هذا التاريخ، ثم أعقبهُ الملك كيكيا الذي ورد عنه أنه شيد أسوارا لمدينة آشور. ثم تبعه بعد ذلك الملك بوزر آشور الأول الذي يعده البعض المؤسس الفعلي للملكة الأشورية القديمة.

إلا إن النهضة الحقيقية لبلاد آشور في عصرها القديم جاءت عندما اعتلى الملك إيلو شوما عرش المملكة الآشورية وفي زمن خليفته المسمى إيريشوم الأول. عندما تمكن هؤلاء الحكام من السيطرة على الطرق التجارية المهمة المارة عبر بلاد الرافدين، بعد أن قدر للدولة الآشورية أن تبسط سيطرتها على مساحات شاسعة من بلاد الرافدين في ذلك الوقت. حيث أمتد نفوذها الى معظم أراضي منطقة ديالى حتى مدينة دير، وأصبحوا بذلك مسيطرين على عقدة المواصلات المهمة الواقعة إلى الشرق من بلاد آشور. و قاد ملوك آشور في سبيل ذلك عدداً من الحملات العسكرية التي وصلنا أنباء البعض منها، والتي منها إحدى الحملات العسكرية الناجحة التي قادها الملك إيلو شوما والتي تمكن من خلالها السيطرة على بعض المدن المهمة الواقعة في جنوب بلاد الرافدين، كمدن أور، ونفر، والوركاء، بعد أن تمت له السيطرة على مدينة دير التي مررنا بها قبل سطور قليلة. و كان الهدف الكبير الذي يكمن وراء تلك الحملة، فضلاً عن إضافة مساحات أخرى من الأراضي للدولة الآشورية، هو تأمين الطرق التجارية القادمة من الخليج العربي. و ركز الملك إيلوشوما اهتمامه نحو مدينة أور، التي ربما كانت تمثل أهم الموانى المؤدية إلى الخليج العربي في ذلك الوقت. والذي تعد دلمون (البحرين) ومكان (عمان) أهم محطاته التجارية، لتفتح بذلك أمام بلاد آشور واحداً من أهم المنافذ البحرية المارة عبر دجلة والفرات . وفي تحركها نحو الشمال فقد أمكن لملوك آشور بسط نفوذهم على مدينة نينوى وما حولها، مسيطرين بذلك على أبرز الأراضي السهلية والمشهورة بزراعة الحبوب الديمية في تلك المنطقة من شمال بلاد الرافدين.

كما أن العلاقات التجارية بين بلاد الرافدين وبلاد الأناضول، والتي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وصلت إلى أقصى أتساع لها خلال هذه المدة. عندما أقام التجار الآشوريون عدداً من المراكز التجارية البارزة في إقليم كبدوكيا، والتي كان من أبرزها موقع كول تبة (قانش)، وموقع علي شار الذي يحوي بقايا العاصمة الحثية القديمة حاتوشا. وتم العثور في موقع كول تبه (قانش)، على الآلاف من النصوص المسمارية التي أعطت صورة واضحة عن الكيفية إلي كانت تجري بها المعاملات والاتفاقيات التجارية هناك. حيث كان يتمتع هذا المركز التجاري باستقلال شبه كامل في تسيير شؤونه العامة في ذلك الوقت.

إلا إن الرفاه الاقتصادي والقوة التي تمتعت بها بلاد آشور يومئذٍ لم تكن لتستمر على نفس الوتيرة ولحقب طويلة كما أراد لها ملوك آشور، عندما تولى الحكم في البلاد ملوك ضعفاء، لم يتمكنوا من الحفاظ على المنجزات التي تركها لهم أجدادهم . وذلك بفعل حدوث بعض المتغيرات السياسية في منطقة الشرق الأدنى بشكل عام، وبلاد الرافدين بشكل خاص. والتي كان من أبرزها وصول موجات جديدة من القبائل الهندوأوربية إلى المنطقة وما أحدثته من ضغوط شديدة على بلاد الأناضول، والذي أنعكس بشكل سلبي على المصالح الاقتصادية للدولة الآشورية، بفعل الاضطراب الذي أصاب المراكز الاقتصادية والتجارية ذات الأهمية الكبيرة للدولة الآشورية . و بقيت بلاد آشور تعاني من الانكماش، ووصلت إلى حالة من الضعف إلى الحد الذي وقعت فيه تحت نفوذ مملكة اشنونا، إحدى الممالك التي نشأت بعد سقوط مملكة أور الثالثة والتي كان مركزها مدينة أشنونا (تل اسمر) حالياً في منطقة ديالى.

بقيت بلاد آشور خاضعة لسيطرة ملوك أشنونا ردحاً من الزمن، ولم تتغير أحوالها حتى أعتلى العرش فيها الملك شمشي أدد الأول إذ تمكنت المملكة الآشورية آنذاك من استعادة مكانتها السياسية التي كانت تمتعت بها من قبل.عاشت بلاد آشور في ظل حكم الملك شمشي أدد الأول الذي استمر ثلاثة وثلاثون عاماً واحدة من أكثر الحقب ازدهاراً خلال عصر المملكة الآشورية القديمة. ولم تكن ظروف تولي شمشي أدد الأول للعرش الأشوري جرت بشكل طبيعي، أي أنه لم يكن أبن الحاكم الذي توفي ثم جاء بعده إلى سدة الحكم. بل تشير كتابات الملك شمشي أدد الأول إلى أنه تولى العرش بعد أن أزاح الملك ايريشوم الثاني عن عرش المملكة الآشورية. إذ يقول في أحدى كتاباته، " شمشي أدد أبن أيلا كبكبو ذهبت إلى كاردونياش (بلاد بابل)، في عهد الملك نرام سين (ملك آشور) و رجعت من بابل، وقبضت (استوليت) على منطقة (مدينة) ايكالاتي، وبقيت في أيكالاتي لمدة ثلاث سنوات، وإن شمشي أدد جاء إلى ايكالاتي وأزال الملك ايريشوم (الثاني) من العرش، واستوليت على العرش وحكمت كملك لمدة ثلاث وثلاثين سنة ". يشير النص الذي تركه لنا شمشي أدد الأول إلى أنه كان مقيماً في بلاد بابل قبل توجهه نحو بلاد آشور، حيث كان توجه شمشي أدد على رأس قوة عسكرية من أجل إزاحة الملك الشرعي عن العرش. ويحمل هذا الأمر في طياته عدة مؤشرات منها، أن بلاد آشور كانت تعاني من ضعف كبير خلال المدة التي سبقت تولي الملك شمشي أدد الأول للعرش، كما أنه من المحتمل أن يكون شمشي أدد لا ينتمي للسلالة التي ينتمي لها الملك أيريشوم الثاني السابق لشمسي أدو.

وأن ذلك يعني أن شمشي أدد الأول كان مغتصباً للعرش ومؤسساً لسلالة ملكية جديدة في بلاد آشور.

وما أن جلس شمشي أدد الأول على عرش المملكة في مدينة آشور حتى شن حرباً واسعة على المدن والمناطق المجاورة لمدينة آشور، كان يهدف من وراءها إلى توسيع حدود أراضي المملكة الآشورية التي انحسرت قبل عهده. حيث قام هذا العاهل بعدد من الحملات العسكرية إلى الشرق من مدينة آشور كان يريد من خلالها إعادةً بعض الأراضي من مملكة أشنونا والتي كانت تتبع في السابق لحكام آشور، و تمكن شمشي أدد الأول جراء ذلك من تثبيت سيطرته على مدينة إيكلاتوم وبعض الأراضي المحيطة بها . وعين أبنه المدعو أشمي داكان نائباً له وحاكما لتلك المدينة، نظراً لما تتمتع به المناطق الشرقية من أهمية إستراتيجية بالنسبة للمملكة الآشورية، بتماسها المباشر مع حدود مملكة أشنونا التي أصبحت العلاقات السياسية معها تتسم بالعداء.

فضلاً عن وجود القبائل الجبلية القاطنة في المنطقتين الشرقية والشمالية الشرقية، والتي مثلت خطراً دائماً طالماً هدد المدن الآشورية. وقد تمكن إشمي داكان لحكم تلك المنطقة، نظراً لما يتمتع به من صفات قيادية متميزة جعلت منه مؤهلاً لتلك المهمة في نظر والده ملك آشور. أما بالنسبة للمناطق الواقعة إلى الجنوب من بلاد آشور، فتشير بعض الآراء إلى أن الملك حمورابي (1792–1750ق.م) ملك بابل ربما يكون خاضعاً للملك شمسي أددالأول في أعوام حكمة العشرة الأولى. مستندين بذلك على نص (ع إقتصادي) كتب في بابل مؤرخ بالسنة العاشرة من حكم الملك حمورابي كتب فيه أسم الملك شمشي أدد الأول إلى جانب اسم الملك حمورابي، مما فسره بعض الباحثين تبعيةً من حمورابي للملك شمشي أددالأول.

وفي الجهات التي تقع الى الغرب من بلاد آشور، وجه شمشي أدد أنظاره إلى مملكة ماري محاولاً إخضاعها لسلطته، وبعد عدد من المعارك التي لم تكن نتائجها حاسمة لأي طرف من الأطراف. جاءت الفرصة التي طالما أنتظرها الملك الآشوري شمشي أدد الأول عندما دبت حالة من الضعف في مملكة ماري ناتجة عن عدة حركات للتمرد ضد الحكومة كان أخطرها تلك التي وقعت في القصر الملكي ضد الملك يخدن لم، والتي تمكن خطورتها في أن قائد التمرد هذه المرة هو الأمير سومو يا مام أبن الملك يخدن لم. و تنتج عن هذا التمرد خلع الملك يخدن لم عن عرشه ومن ثم مقتله وجلوس إبنه المتمرد سومو يامام (1809–1800ق.م) على عرش المملكة

. وتشير أصابع الاتهام إلى الملك الآشوري شمشي ادد الاول كونه محرضاً للجماعة المتمرده وداعماً لهم. وبعد بضع سنوات تحركت القوات الآشورية صوب مدينة ماري، وتمكنت من السيطرة عليها وعلى مساحات واسعة من الأراضي المحيطة بها، فضلاً عن عدد من المدن كانت تتبع ملك ماري. و اسند شمشي أدد الأول إلى أحد أبنائه والمدعو يسمخ أدد مهمة إدارة مدينة ماري والمدن التابعة لها، بعد أن جعلها مقاطعة تابعة للعرش الآشوري ليحكم بذلك شمشي أددالأول قلب المملكة في آشور بينما جناحاها

الشرقي والغربي كانا تحت حكم أبنائه. وما أن أطلت الستة الثلاثون من حكم الملك شمشي أددالاول حتى أصبحت المملكة الآشورية واحدة من أبرز الممالك في بلاد الرافدين في ذلك الوقت. بعد أن امتدت رقعة أراضيها من جبال زاكروس شرقاً إلى ما وراء مدينة ماري في سوريا غرباً ومن مدينة نينوى شمالاً إلى ما وراء مدينة بابل جنوباً. بفعل الرات الإدارية والسياسية والعسكرية التي تثبت وبما لا يقبل الشك أن الملك شمشي أدد الأول خير من يتمتع بها، واستحق بذلك لقب ملك العالم(LUGAL KIS)، حيث كان شمشي أدد أول حاكم آشوري يتخذ لنفسه لقب ملك الى جانب ملك الكون.

توفي الملك شمشي أدد الأول عام (1782ق.م) تاركاً إبنه وخليفته الملك إشمي داكان (1781-1742ق.م) على عرش المملكة الآشورية بعد أن تدرب على الإدارة وممارسة السلطة في حياة والده عندما كان نائباً له في مدينة إكالاتم. و تعرضت المملكة الآشورية لهزة عنيفة حال سماعها بنبأ وفاة عاهل آشور القوي، إذ واجه الملك إشمي داكان عدداً من التمردات الداخلية والتي أستنفذ معظم سنوات حكمه الأولى في معالجتها. شهد ميزان القوى في بلاد الرافدين تبدلاً واضحاً حيث ان كفة القوة بدأت ترجح لصالح مملكة بابل التي بدأت تفرض سيطرتها سياسياً وعسكرياً على بلاد آشور شيئاً فشيئا. وحاول الملك إشمي داكان التخفيف من قوة الطوق الذي بدأت به بابل تفرضه عليه، بقده تحالفات مع بعض القوى المعادية لبابل آنذاك. لكن كل تلك المحاولات لم تفت في عضد الملك إشمي داكان الذي واجه حلفاً قوياً تكون من مملكة حلب (يمخد) ومملكة بابل ومملكة أشنونا. نتج عنه طرد يسمخ أدد أخو إشمي داكان ونائبه في ماري، وخسرت آشور بذلك واحدةً من أبرز الأقاليم التابعة لها، والتي تميزت بأراضيها الخصبة ذات المردود الاقتصادي الوفير للخزانة الآشورية. وما أن حلت السنة العشرون من حكم الملك إشمي داكان

حتى أصبح ملك آشور يحكم في عاصمته كتابع لملك بابل، الملك حمورابي الذي بدأ نجمه بالصعود في تلك المدة.

توفي الملك إشمي داكان عام 1742 ق.م بعد أن جلس على عرش المملكة الآشورية لمدة أربعين عاماً، حيث سادت بعد هذا التاريخ واحدة من أكثر حقب التاريخ الآشوري التي تميزت باضطراب أحداثه. فضلاً عن صراع على السلطة عندما تناوبت على عرش المملكة في آشور عدة عائلات، والتي كان يوصف أبنائها من الذين يجلسون على العرش الآشوري بأنه (ليس أبناً لأحد) دلالة على اغتصابه للعرش. و شغلت تلك المدة أكثر من قرنين من الزمان شغلت المدة (1740–1500ق.م) تعد من أطول حقب التاريخ الآشوري غموضاً.